

أحمد عز الدين أسعد | Ahmad Iz Addin As'ad \*

## الجهاد في الغرب: صعود السلفية المقاتلة

*Jihad in the West: The Rise of Militant Salafism*

العنوان الأصلي:

Frazer Egerton / فرايزر إيغرتون

المؤلف:

فادي ملحّم

المترجم:

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر:

2017

سنة النشر:

288 صفحة

عدد الصفحات:

\* باحث في الدراسات الإسرائيلية. حاصل على شهادتي الماجستير في الدراسات العربية وفي الدراسات الإسرائيلية من جامعة بيرزيت.

Researcher in Israeli Studies, he holds an MA in Arabic Studies from Birzeit University.

## أولاً: أهمية الكتاب

وُلدوا في الغرب أو عاشوا فيه فترة طويلة، مؤكِّدًا اختلاف سيرة السلفيين الذين وُلدوا ونشؤوا في حوض المدينة الغربية عن سيرة أولئك الذين عانوا ويلات الفقر المدقع أو النزاعات، أو التلقين الديني المتطرف في مناطق أخرى (ص 15).

يهتم الفصل الأول، «مُلأً مجنون أم مقاتل من أجل الحرية؟ من هو السلفي المقاتل؟»، بتفسير الظاهرة السلفية؛ إذ يرى الكاتب أنّ هناك عنصرين رئيسيين في تفسير السلفية المقاتلة: العنصر الديني، والعنصر السياسي (ص 21). ويناقش فكرة الدفاع عن المسلمين في العالم من خلال الاعتماد على أفكار السلفيين المتشددين وعباراتهم وخطابهم، وهذا لا يعني أن السلفية المقاتلة هي ردة فعل مباشرة على السياسة الخارجية الغربية (ص 26-27). ويتوقف الكتاب، أيضًا، عند ادعاءات السلفيين المقاتلين ومروياتهم الكبرى المنطلقة من أن قتالهم نابع من سوء أوضاع المسلمين، وحرمانهم، والاستبداد الممارس ضدهم، مجادلًا بأن غزو العراق وأفغانستان كان الحافز المسبب للنزعة القتالية (ص 27-29). ويشير الكاتب إلى أن السلفي لا يهتم بالسياسة إلا عندما ينجزها في إطار الكفاح المسلح بين كيانين متخيلين: الإسلام، والغرب (ص 30).

يحاول المؤلف فهم موقع الثقافة الدينية داخل الظاهرة السلفية المقاتلة، بالنظر إلى ادعاء السلفيين المقاتلين أن الإسلام هو محركهم ومحفزهم؛ فهم يعيشون ويموتون من أجل الواجب الديني (ص 32). ويجادل المؤلف بأن البحث في النصوص والتعاليم الدينية، للحصول على تفسيرات مباشرة وثابتة عن الإرهاب، هو أسلوب تحقيقي غير مفيد؛ ذلك أنه يمكن إيجاد دعوات ترفض العنف إلى جانب تلك الداعية

تنبع أهمية الكتاب من أهمية موضوعه - وهو الجهاد والقتال السلفي في الدول الغربية - ذلك أنّ السلفية المقاتلة تُعدّ من الحركات الأهم في عالم السياسة. ويحاول الكتاب تقديم فهم جدّي وجديد للظاهرة السلفية المقاتلة، بالتركيز على المخيال السياسي الذي يكوّن الجماعات السلفية المقاتلة، خلافًا للمناهج والأطر النظرية السابقة التي تعقبت الظاهرة؛ مثل مناهج الخلل النفسي، والاعتراب الفردي، والاعتراب البنيوي، التي عانت قصورًا نظريًا ومنهجيًا في تفسير الظاهرة. ويشغل الكتاب بتفسير دور أدوات وظواهر حديثة؛ مثل الإعلام، وتأثير حركة التنقل والهجرة، في تصاعد بنية السلفية المقاتلة وأيديولوجيتها.

## ثانيًا: بنية الكتاب

يتكون الكتاب من مقدمة وستة فصول. في المقدمة، يحاول الكاتب تقديم دراسة واضحة ومطلّعة على السلفية المقاتلة ضمن الأطر النظرية، ويدعم ذلك بأدلة تجريبية. ويرجع استخدام الكاتب مصطلح «السلفية المقاتلة»، وتجنبه استخدام «السلفية الجهادية»، إلى كون المصطلح الثاني تعبيرًا عن تيار شائع ووصفًا له، بينما يحمل مصطلح «السلفية المقاتلة» دلالات استخدام هذه المجموعة للعنف. ويضبط المؤلف مصطلح «السلفية» باشتقاقها في اللغة العربية من السلف، أي الجد، ويبيّن أنها تعني التفسير الحرفي في الإسلام على المذهب السني؛ وهو التفسير الذي يرى أنّ الاجتهاد بعد النبي محمد وأصحابه انحرافٌ عن الأصل (ص 14-15). ويحصر الكتاب دراسة السلفية المقاتلة في الغرب؛ أي إنه يدرس أولئك الذين

ملحوظ يتجاوز دعم نظرية الاغتراب الفردي. وهي تركّز على الاغتراب الجيلي (ضمن جيل معيّن)؛ إذ تضم السلفية المقاتلة فئة الذكور الشباب (ص 56-57). وهناك اختلاف في تحديد سبب شعور الشباب بالاغتراب ما بين فئة تقول إن المسلمين الغربيين يعانون الرفض أو الصد العرقي، وفئة أخرى تقول إن الدافع هو التمييز والحرمان الاقتصادي (ص 58).

أما الفصل الثالث، «ياخذنا إلى كل مكان: دور المخيال السياسي»، فقد طور المؤلف فيه مفهوم المخيال السياسي السلفي باستبطان مفهوم «الجماعات المتخيّلة» الذي صاغه بندكت أندرسون. ويتساءل المؤلف حول ماهية العوامل التي تسهّل على الأفراد بناء المخيال السلفي المقاتل. ويرى أن «المخيال السياسي السلفي يشتد حين يتخيل المجاهد نفسه مدافعاً عن المسلمين في أنحاء العالم، أي في المعركة التي يشنها زملاؤه المقاتلون من مانشستر إلى مقديشو. ويتكون المخيال السياسي ويصير فاعلاً عندما تجتمع حوادث عالمية منوّعة، وتتداخل مع حوادث محلية. وأصبح هذا الأمر ممكناً بسبب تضافر قوى وأوضاع خاصة في هذه المرحلة الراهنة من الحداثة المعولمة» (ص 81-82).

وهناك عدد من الأمور التي تتيح للمخيال السياسي العمل بطريقة فاعلة في السلفية المقاتلة؛ منها الحداثة المعولمة، وانتشار الشبكة العنكبوتية، وتكثيف العلاقات الاجتماعية على صعيد العالم، وتأثر حوادث محلية بحوادث في أماكن بعيدة (ص 86). وهناك شرطان من شروط الإمكانات التي أثّرت تأثيراً كبيراً في المخيال السياسي لدى السلفيين المقاتلين؛ هما حركات الانتقال، ووسائل الإعلام. تؤثر حركة التنقل

إليه في تلك النصوص والتعاليم. ومن ثم، يرى المؤلف أن دور الدين يقع في السردية الخاصة التي تُصاغ وفقاً لأشكال الفهم السياسي الذي يريده المقاتلون، وأن هناك جوانب سياسية - دينية للكفاحية القتالية ترى في الغرب عدوًّا للأمة يهدد هويتها (ص 37).

ويُعنى الفصل الثاني، «ما هي مشكلة هؤلاء الناس؟»، بنقد العجز والقصور اللذين يسمان منهجين سيطرا على دراسة الإرهاب؛ هما منهج الخلل النفسي، ومنهج الاغتراب. ويجادل المؤلف بأن ادعاء وجود استعدادات نفسية مسبقة للإرهاب هو نتاج أدلة من روايات ضيقة وضعيفة، مصدرها عدد قليل جداً من الإرهابيين. وعلى الرغم من أهمية فرضية الاغتراب، لم يجرِ توضيح معناه، ولا الأثر المحتمل الذي يسببه. ويرى المؤلف شقّين رئيسيين في عملية التنظير لمبدأ الاغتراب في السلفية المقاتلة؛ هما منهج الاغتراب الفردي، ومنهج الاغتراب النبوي (ص 43-44).

تدّعي نظرية/ منهج الاغتراب الفردي أن الشعور بالاغتراب، بعد الفشل في الاندماج الاجتماعي، يدفع السلفي المقاتل إلى الرغبة في الانتقام من أولئك المسؤولين عن فشله. وجاذبية الكفاحية الراديكالية، بحسب هذا الاتجاه، مصدرها الفرصة التي تقدّمها للفاشل للانتقام من المنتصرين أو الناجحين، واختيار السلفية المقاتلة هو خيار طارئ، يعتمد على المصادفة؛ إذ تكون هذه العقيدة السلفية موسمية، أي رائجة في زمان ومكان معيّنين، ولا يكون اختيارها بسبب قدرتها على الإقناع (ص 49)، ولكن بفضل توقيت ظهورها وانتشارها في تربة ملائمة.

وتحظى نظرية الاغتراب النبوي في تفسير الانتقال إلى الراديكالية والتشدد القتالي بدعم

الأمة المتخيل وتعزيزه. وهي تعزز مكانة الفرد في هذا المجتمع بطريقتين رئيسيتين؛ هما الدور الخاص للصور، والقضاء على المكان/ الحيز (ص 127)؛ فمشاهدة الحوادث المختلفة في العالم تخلق فور وقوعها وهماً بالمشاركة في ذلك العالم، وبالتقارب الافتراضي (ص 128).

ويتسبب النقص في الانتماء، أو الارتباط بالمجتمع، في اعتماد الصور حججاً عاطفية؛ فالعواطف جزء لا يتجزأ من السياسة، ولا يمكن قياسها. وتحمل العاطفة تأثيراً واضحاً في الفكر السياسي للسلفيين المقاتلين، وتنشئ رابطاً قوياً بين السلفيين المقاتلين بغض النظر عن المسافة الجغرافية والشخصية والثقافية. فهم يتوحدون بالعواطف؛ ومنها الخوف، والشعور بالذل، والاضطهاد المزعوم بفعل الحرب المستمرة التي يشنها الغرب على العالم الإسلامي (ص 131-132). ثم إن «سهولة الوصول إلى وسائل الإعلام الإلكتروني، ونشرها الصورة التي تتخطى الحدود، تساعد في توضيح فكرة محددة عمن هو ال (أنا)، ومن هم ال (نحن). ومع شيوع صورة الصراعات المقبلة من أماكن مختلفة جغرافياً، وتشبّع مجموعات بها وهضمها، بدأ مسلمون غربيون يعتبرون أنفسهم مجاهدين تربطهم صلات قري. ويتضاعف تأثير الصور عندما يتداخل مع الشرط الأكثر أهمية في إمكان ظهور السلفية، وهو حركة الانتقال» (ص 135).

يشق الفصل الخامس، «حركة الانتقال: من الفعلي إلى الأيديولوجي»، الحيز المكاني عند السلفيين المقاتلين من فكرة الأمة، وهي هوية دينية عابرة للحدود الوطنية، وترفض الإقليم حدوداً للهوية (ص 139). واهتم هذا الفصل بتقصي حركة الانتقال في حياة عدد من السلفيين المقاتلين،

الكبرى للسلفيين المقاتلين في تبلور هوياتهم؛ وذلك بتعرضهم لاحتمالات تؤثر، أيضاً، في مخيالهم السياسي، كما أن الإعلام الإلكتروني والمركزي والتفاعلي الذي تهيمن عليه الصورة يؤدي دوراً بالغ الأهمية في تشكيل هوية السلفي المقاتل؛ وذلك بدمجه في حوادث من أماكن بعيدة ضمن نظرية عالمية (ص 87-88)، وقد قلص هذا الإعلام النشاط المسافات، وعمل بنهم في القضاء على الحيز/ المكان (ص 90). وهكذا فإن «السلفي المقاتل يتخيل نفسه عضواً في الأمة التي تواجه الغرب العدواني أو المتغطرس» (ص 99). وقد أدى الإعلام وحركة التنقل إلى إنشاء سياسة حنين (نوستالوجيا) تعتمد على شيء آخر غير التجربة؛ إذ «لا يعتبر السلفي المقاتل، وهو نتاج المخيال السياسي، أن الأمة من وحي الخيال. تأتي فكرة الأمة، وهي مركزية في مشروع السلفية المقاتلة، من وهم يقود إلى الحنين، لكنه حنين بلا ذاكرة» (ص 100).

وفي الفصل الرابع، «وسائل المعلومات الشاملة وتكوين المجتمع المقاتل»، يجادل المؤلف بأن للإنترنت أهمية كبيرة في عالم السلفيين من أجل البحث عن الحقيقة ومعرفة ما يرغبون فيه، كما كان للبت الفضائي، خصوصاً قناة الجزيرة، دور في نقل الأحداث إلى داخل بيوت ضواحي أمستردام/ هولندا (ص 114-115).

إن مشاهدة السلفيين المقاتلين القنوات الفضائية ومقاطع الصراعات التي لم يخوضوها عرفتهم الحقائق السياسية التي لم يكونوا جزءاً منها، وجعلتهم يتصورون أنهم يخوضون الحرب نفسها (ص 122). أما الدور الرئيس لوسائل المعلومات الشاملة في تكوين الوهم لدى السلفية المقاتلة المعولمة، فهو يتمثل بقدرتها على بناء مجتمع

أن الانتقال يقضي على هذه الفكرة؛ فأحياناً يعزز الانتقال الرأي القائل بضرورة وجود تطابق بين المكان الذي يقيم فيه الفرد (أين أنا؟)، وحقيقة الشخصية (من أنا؟)، وتؤدي حركة الانتقال إلى تزايد إمكان تعديل مفهوم الهوية في عملية إنتاج الحياة السياسية؛ فعملية انخلاعهم المكاني تعزز إمكان اعتمادهم رؤية للعالم غير منتجة إلى مكان أو أرض/ إقليم. وزاد ذلك من تمكينهم من تخيل أنفسهم جزءاً من جماعة عالمية تتجاوز سواها من الجماعات (ص 160-161).

يحاول الفصل السادس، «لماذا أنا؟ دور السرديات الأوسع والوسطاء»، توضيح أن الأفكار الكثيرة حول ظهور السلفية المقاتلة مرتبطة بالبنية الاجتماعية المتغيرة، وبالذور القوي للإعلام وحركة الانتقال. ويؤكد المؤلف أنه على الرغم من أن جميع المسلمين في الغرب يواجهون القوى نفسها (الدولة، والمؤسسات، والبنيات القانونية... إلخ)، فإن أعداد أولئك الذين ينضمون إلى النضال والكفاح صغيرة جداً، ويتساءل: لماذا ترفض الأغلبية الانضمام إلى الحركة «النضالية» التي يبدي عدد قليل استعدادها للعيش أو الموت من أجلها؟ (ص 169).

ويوضح المؤلف أن تفكير السلفية المقاتلة تجاه القوى الأوروبية يتسم بالمنطية؛ إذ ينتشر اعتقاد بين كثير من الناس، خصوصاً من جهة المسلمين في الغرب، مفاده أن هناك سياسات خارجية وعسكرية غربية تزن بمكيايين من دون مبرر؛ خدمةً للمصالح الذاتية فحسب، وأن المسلمين والدول الإسلامية يتعرضون لظلم بلدان غربية كثيرة وعدوانيتها (ص 173). ويمثل هذا النمط من التفكير والتخيلات تربة خصبة لبناء سرديات السلفية المقاتلة.

وشرحها، وتتبع أهمية هذه الحركة، ودورها في إنتاج رؤية بديلة لتدابير سياسية، ومصدر للهوية (ص 140). وأوضح المؤلف أن السلفية المقاتلة في أوروبا تنمو من خلال أعضاء أوروبيين، ينقسمون بين أقلية انتقل أبواهم إلى أوروبا، وأكثرية انتقلوا هم أنفسهم إليها (ص 141).

ويتبين أن أكثر المنخرطين في السلفية المقاتلة هم من المهاجرين، لكن ذلك لا يعني أن عدد غير المهاجرين قليل في السلفية المقاتلة. «يسمى المقاتلون الذين ولدوا وترعرعوا في الغرب بالإرهابيين المحليين. ومنهم من ينحدر من آباء غير مهاجرين، لكن آباء معظمهم مهاجرون. وتُظهر الفئة المنحدرة عن الهجرة أن حركة الانتقال لا تنتج دائماً من ظاهرة عدم الانتماء إلى إقليم/ مكان. ويزداد تأثير حركة الانتقال عندما يعيشها آخرون لم ينتقلوا أو يهاجروا شخصياً. فصاحب المتجر الكشميري في بكهام، ومدرس اللغة الكندي في بوسان، والمومس الكمبودية في دبي، لا يقصرون هجرتهم على ذواتهم، بل يجلبون معهم أيضاً مفاعيل الانتقال أو الهجرة التي تؤثر في الآخرين: إما بالاتصال المباشر، أو من طريق التحويلات المالية، وإما عبر نقل الأفكار وتبادلها. وهذا لا يخلو من نتائج أو عواقب» (ص 148). ومعنى هذا أن حركة الانتقال، من أقاليم، ودول غير أوروبية إلى أوروبا، تسهم في إنماء النزعة السلفية المقاتلة بسبب ظروف التهجير ومسبباته، ويتأثر بها الجيل المهاجر وجيل الأبناء أيضاً.

تعد الأمة المقاتلة الأساس الأيديولوجي للسلفيين المقاتلين في الغرب، خصوصاً في علاقاتهم العدائية بعدوهم المفترض (الغرب)، وتقوّض عملية الانخلاع من المكان أهمية الفكرة القائلة إن الإقليم/ المكان هو المحدد للهوية. وهذا لا يعني

### ثالثاً: مناقشة الكتاب

نجح الكتاب، إلى حد ما، في تقديم دراسة منهجية للسلفية المقاتلة ضمن إطار نظري واضح، مستنداً إلى أدلة وتقارير وشهادات موثقة. وفكك الصورة النمطية، وأسقط الأحكام المسبقة والدعاية الإعلامية والتحريضية ضد المسلمين في الغرب، من خلال تبيان أن عدد السلفيين المقاتلين المنتمين إلى الإسلام في الغرب يمثل نسبة قليلة، وأن الغالبية المسلمة في المجتمعات الغربية غير منخرطة في نشاط السلفية المقاتلة؛ أي إن هناك حياة يومية طبيعية للمسلمين الذين يعيشون في أوروبا، وهذا ما يُسقط ادعاء معاداة المسلمين في الغرب للدول والمجتمعات الغربية. وهكذا نجح الكاتب في تفادي السقوط في فخ التعميم.

لكن المؤلف انحاز إلى الدعاية السياسية والإعلامية الغربية التي تروّج ارتباط الإرهاب بالإسلام؛ وذلك باستبعاده منهج الخلل النفسي، ومنهجي الاعتراب الفردي والاعتراب البنيوي، وتبنيه فكرة «المخيل السياسي». ويدّعي هذا المنهج أن السلفية المقاتلة تبني لنفسها صورة جماعة متخيّلة، تخوض حرباً ضد الغرب؛ بسبب وجود ظلم موجّه إلى المجتمعات الإسلامية. وهنا، يقع المؤلف في فخ التحيز المنهجي؛ لأنه مأسس الأعمال العنيفة الفردية، سواء المنظمة أو غير المنظمة، ضمن هوية مقاتلة لجماعة متخيّلة، وصوّرها على أنها بنية اجتماعية/ سياسية/ ثقافية/ أيديولوجية، وقلل من أهمية دراسة الخلفيات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية لمنقذ الهجمات في الغرب.

ويبرز تبجيل الأبطال والشهداء في خطاب السلفيين المقاتلين، إلى جانب المظالم السياسية التي يتعرضون لها، إذ يشعر مسلمو الغرب بعاطفة كبيرة تجاه هؤلاء الأبطال، ويقوم السلفيون بتعديل العبر التي يقدمونها عن الأبطال، ويضيفون أيضاً شخصيات معاصرة تشبه رسالتها ومثالها رسالتهم ومثالهم (ص 179)؛ من أجل صناعة الرواية السلفية المقاتلة وحبكتها السردية. ويؤدي الوعاظ المقاتلون دوراً مركزياً في نشر أفكار السلفية المقاتلة، وبث رسالة متمثلة بحتمة الجهاد العالمي عند جميع المسلمين (ص 188).

ولروح الجماعة دور مهم أيضاً، وعادة ما يتحول معظم الذين يختارون الحركة النضالية إلى السلفية المقاتلة في إطار تضامني داخل جماعة؛ إذ تؤدي الجماعة دوراً مهماً في ترويح الخطاب السلفي. وفي إطار الجماعة، تُحمّل أشرطة فيديو من الإنترنت، وتُلخّص محاضرات الوعاظ المناضلين الحركيين أو سير المنظرين الحركيين، وتُعدّ الجماعات عاملاً مهماً في تقبل الخطاب الذي يشكل نواة السلفية المقاتلة (ص 191).

في «خاتمة» الكتاب طرح المؤلف بديلاً من المقاربات الأخرى التي تركز على الأسباب الجذرية الفردية لتطور السلفية المقاتلة، مستخدماً فكرة المخيال السياسي في عصر الحداثة المعولمة. ويؤدي المخيال السياسي دوراً محورياً في حياة السلفيين المقاتلين، وفي جميع الأحوال، تعتمد الهوية السياسية والعلاقات السياسية على ممارسة المخيال السياسي بدرجة ما (ص 201-202). كما جادل المؤلف بأن تطور السلفية والسلفيين المقاتلين تم من خلال الإعلام وحركة الانتقال ومساعدة الوعاظ المقاتلين (ص 205).